مقدمة

فى جو التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين .

وبعد : فإن رسول الله ﷺ يقول : « أنا نبى التوبة » والواقع أن الطريق إلى التوفيق فى عمل الحق الذى أرسل الله به رسوله إنما يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح ، ولقد كان رسول الله ﷺ يعيش فى جو من التوبة مستمر ، ولقد روى عنه أنه كان يقول ما معناه : يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة ويقول : يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إليه وأستغفره فى اليوم مائة مرة ، وما كانت توبة رسول الله ﷺ عن ذنب وحاشاه ﷺ وهو المعصوم ، وما كانت توبته ﷺ عن غفلة ، كلا ، وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه ، وإنما كانت توبته توبة عبادة وتوبة عبودية ، ومن أجل ذلك كان يكثر منها عبادة وعبودية ، وكان يكثر منها ليكون فى داخل الإطار الذى رسمه الله سبحانه وتعالى بقوله : (إن الله يحب التوابين) ، والتوابون هم الذين يكثرون من التوبة .

وإن للتوبة الصادقة خصائص ، إنها أولا تخرج الشيطان من القلب فيصبح طاهراً بريئاً من كل دنس ، وهذا هو المغزى العميق من وراء كل الجدل والمماراة فى حادث شق الصدرْ ، وما من شك فى أن المغزى الذى نأخذه من شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه هو الطهارة الكاملة للصدر ، ونشأ رسول الله ﷺ منذ بواكير حياته مطهراً نقياً ، وأول خصائص التوبة إذن إنما هى الطهارة والبراءة التامة .

وإذا أخذنا شق الصدر بالنسبة للرسول ﷺ بمثابة التوبة بالنسبة لنا ، فإننا نقول إن من خصائص التوبة حينما تتكرر فى صدق وإخلاص أن تملأ القلب سكينة ، لأن الإنسان بالتوبة الصادقة يلقى بنفسه فى الرحاب الإلهى فيسكن إلى الله ، وكفى بالله هادياً وكفى بالله نصيراً ، إنه بالتوبة وهى نوع من اللجوء إلى الله ، والتضرع إليه والإنابة يسلم الأمر إلى الله وفى التوبة تسليم ، وفى التوبة توحيد ، وفى التوبة توكل على الله فيمتلىء القلب سكينة ، وإذا كانت الأحاديث الشريفة تقول عن شق الصدر فى المرة الأولى : إن الملكين استخرجا حظ الشيطان من القلب الشريف ، فإنها تقول عن شق الصدر فى المرة الثانية : إن الملكين ملآ قلبه الشريف سكينة .

وتتكرر التوبة فتصل إلى ما عبرت عنه الأحاديث الشريفة عن شق الصدر الشريف فى المرة الثالثة ، وذلك أن الملكين ملآ القلب الشريف حكمة ، وكذلك فى التوبة إذا دامت . ثم إنها إذا تكررت انتهت بحب

الله العبد المكثر من التوبة إن الله يحب التوابين .

وكلمة رسول الله ﷺ . أنا نبى التوبة معناها فى النهاية أنا النبى الذى أتيت راسماً الطريق الذى يسير بالإنسان فى خطوات منتظمة رتيبة إلى استخراج حظ الشيطان من القلب ، ثم إلى امتلاء القلب سكينة ، ثم إلى امتلاء القلب حكمة ، ثم إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده التائب .

وأما بعد فإن من طرائف العقول المستبصرة ما رواه صاحب كتاب الشامل ونقله عن الإمام ابن كثير فى تفسيره من أن أعرابياً جاء إلى الضريح النبوى الشريف وقال :

السلام عليك يا رسول الله ، لقد قال الله فى كتابه العزيز :

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) .

وقد جئتك مستغفراً لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وانصرف الأعرابى ، وكان جالساً بالقرب منه رجل صالح يسمع كلامه ، فأخذته سنة من النوم فرأى النبى ﷺ فى النوم يقول له : الحق بالأعرابى فبشره بأن الله قد غفر له . .

هذا وبالله التوفيق ، ، ،